الافتتاحية

تحوّلات الصورة

غسان زقطان

(I)

في العدد (11) من «الشعراء» خرجنا على المألوف وظهرت على الغلاف صورة للفتى الغزيّ «فارس عودة»، وهو يقف مكشوفاً ونحيفاً على بعد أمتار قليلة من دبابة احتلالية، في أفق الصورة جنود إسرائيليون مشاة وكومة من الدمار تشير إلى بيت هدمه الجنود الغزاة للتوّ.

فيما بعد سيطلق قنّاص إسرائيلي النار على فارس عودة، وستبدو تلك الصورة الاستثنائية أقرب إلى إشارة عميقة لقوّة المقاومة، وفيما يشبه تخطّي حاجز الخوف سيأخذ ذلك الجسد النحيل المتأهّب للطفل الشجاع شكل الإشارة التي ستنقل المواجهة مع العدو إلى مناطق جديدة لا مجال فيها ولا وقت للتراجع أو العودة إلى الوراء.

سيكون مؤلماً أن نتذكّر أنّ فارس خرج وحيداً لمواجهة الغزاة، يبدو في الصورة وحيداً تماماً ومتقدماً، على الأرض في المسافة بينه وبين الدبابة حجارة متناثرة تشير إلى أنّهم كانوا هنا: أصدقاء يتراكضون خلف الكاميرا، أعمار لا يمكن السيطرة على أحلامها أو رغباتها أو وضعها في قفص.

كيف كسر الفتى سياج العائلة وأدعية الأم وأحلام الأبّ والخبز والشاي، واندفع نحو تلك اللحظة .. لعلّه لم ير صورته تلك ولن يراها.

الانتفاضة الفلسطينية التي تتحرك بمجاميعها المتراصفة في شوارع المدن والجبال في الضفة وغزة، الفهود المرنة الخفيفة التي تصعد في ممرات الجبال الوعرة لتلتقط حواجز الاحتلال والجنود القتلة، البيوت المتكاتفة والنوافذ الضيقة في المخيمات التي تواصل إطلاق النار والحجارة على الغزاة .. كل هذا ينتقل من إطار صورة إلى إطار صورة أخرى، من صورة محمد الدرّة إلى فارس عودة، تاريخ كامل يركض بين طفلين شهيدين، في الانتقال من صورة الضحيّة في مشهد محمد الدرّة إلى صورة المقاومة في مشهد فارس عودة يكمن نمو الانتفاضة الفلسطينية ونضوج لغتها والأفق الذي تذهب إليه.

(II)

فيما يشبه تذكراً أو اعتذاراً اختارت منظمة اليونسكو اليوم الـ (21) من آذار من كل عام يوماً للشعـر، اليوم الذي يقع على حدود الانقلاب الربيعي، حيث تتفق الميثولوجيا الإنسانية على نقطة التجدد واستعادة الحياة.

لم يعد هناك شعراء جوّالون يدخلون بوابات المدن من أسوارها مثل قادة لأقاليم غير مرئية، المدن الجديدة أخذت ذكريات أولئك الرحّالين وأحمالهم وواصلت اندفاعها إلى تخوم جديدة.

مثل ذريّة عاقة تبدو المدن في ذاكرة أكثر الشعر، ومثل آباء مخذولين يواصل الشعراء وصولهم إلى تخومها والتلال المطلّة عليها، بعد أن انتقلت الأسوار إلى الداخل العميق في كلّ شيء: في البيت والقلب والروح والرغبة، ولم تعد تحيط بالشيء من خارجه كالسوار حول المعصم.

الشعراء هم المنفيون الجدد في العالم الجديد، سلالة منفية تعبر مثل أضواء بطيئة منازل لا تحتفي بها، في المنفى الخاوي والمنشغل الذي لا يحمل ذاكرته ليضيفها إلى حمولات المنفيين، تصبح الذاكرة الشخصية القادمة من المكان الأول من خيط السلالة المتصل هي وسيلة البقاء الوحيدة، واليد الوحيدة المتوفرة للاتصال بالعالم، رغم ما تحمله هذه الذاكرة من خوف وافتقاد وتناقض.

في الفراغ المزروع يؤثّث المنفيون الجدد روايتهم القديمة، ويعيدون ترتيب رغباتهم، وإحصاء خساراتهم في تذكُّر يذهب إلى المستقبل.

هناك خشية على الشعر، خوف من ذهابه الدائم إلى حقول أخرى، حقول مجاورة في استعارة دائمة يذهب الشعر إلى مناطق مأهولة بسواه، خشية لا مبرّر لها ولا معنى، ولكنها مهمّة لبقائه ودوامه وضرورته الغامضة.

في الشعر: لا أحد يصل، هذا كان العنوان العريض لمقابلة طويلة مع محمود درويش في العدد الخاص (5/4) من مجلة «الشعراء» وهي قلق عودة عوليس إلى إيثاكا وتلاشي الفارس وغرناطة .. وهي، أيضاً، لدى لوركا:

«يا للخسارة
لم يَعُدْ هناكَ غجرٌ يصعدونَ الجبلْ . . »

وهي سياج من شجرة واحدة عند أدونيس، وهي ذلك البيت الوحيد الكلاسيكي الذي وضعه أدونيس في ديوان الشعر العربي لشاعر جاهلي مجهول:

«الناسُ بحرٌ عميقٌ   والبعدُ عنهمْ سفينة» .

وهي، أيضاً، الـ (21) من آذار حين نفكّر، جميعاً، كشعراء، أننا على أرض واحدة أو منفى واحد.